مستقبل الحواريين
الثقافات والحضارات: الإيجابيات والسلبيات

إعـداد
أ.د. عبدالله التطاوي
نائب رئيس جامعة القاهرة لشؤون خدمة المجتمع وتنمية البيئة

صفحة أبيض

بسم الله الرحمن الرحيم

محاور الورقة :

- تمهيد : نقاط مبدئية.

١- نحو تأصيل مبدئي لفكرة المشترك الثقافي والإنساني.

٢- في سياق معطيات ثقافتنا العربية الإسلامية.

٣- في إطار العام والمطلق.

٤- الاتجاه نحو المستقبل ومستوى الرؤية.

٥- تقويم ومكاشفة.

تمهيـــد

نقاط مبدئية في ورقة العمل المقترحة للمشاركة في محور
« مستقبل الحوار بين الحضارات والثقافات: الإيجابيات والسلبيات »

١- الحد الاصطلاحي بين مفاهيم الحوار والصراع والتصادمية الثقافية.

٢- البعد الإنساني وقراءة المشترك الثقافي ومقومات الحوار وتداعياته بين:

القبول ـ التأثير والتأثر ـ الأخذ والعطاء - الانفتاح الذهني - تجاوز العنصر والمذهب والمعتقد ـ الموضوعية ـ الحيدة ـ سلامة المنهج ـ صحة النتائج.

٣- تواصُل الحوار وإيجابياته:

تفعيل الماضوية لبناء جسور الثقة بالذات ـ الانطلاق من منظومة التطوير والتحديث ـ الوعي بالمتغير وامتلاك آلياته، تجاوز الانقطاع المعرفي واحترام فكر الآخر.

٤- الإيجابيات : تعزيز المشترك الإنساني ـ صحة الاتجاه إلى طريق التنمية البشرية ـ تفعيل قنوات الفكر ـ التثاقف الفاعل ـ تلافي الانقسام المجتمعي أو الانشطار الذاتي ـ رحابة الفكر المنهجي في رؤية المستقبل ـ نجاح مشروع الإصلاح والتحديث ـ مواجهة صدمة الحداثة وتأصيل الجديد ـ صناعة المزاوجة الهادفة بين الموروث والمستحدث ـ تفعيل التكامل المؤسسي في صناعة قنوات المعرفة ـ بداية إنتاج الثقافة ومواجهة التحديات ـ تقوية الجسر الثقافي مع الآخر، والاتجاه إلى ثقافة الفعل والإنجاز.

٥- السلبيات المتوقعة :

- الخوف على الهوية، والحذر من رياح التهميش والمساس بالقوميات، أو الكيانات التاريخية.
- الانزعاج أمام تيارات التغيير إذا لم تقم على مناهج علمية جادة، قادرة على الاستيعاب، وضبط المسار القومي، دون تهيل أو تهوين.
- اهتزاز الرؤية أمام مرجعيات التغيير، أو التراخي في الانطلاق إلى ثقافة الإنتاج والإنجاز، وتجاوز الخطابية وضجيج الحوار.
- التراجع في مسئولية تحليل الخطاب العربي المعاصر بكل أبعاده ومستوياته التربوية والشبابية والإعلامية والدينية والقيمية ضمانًا للتواصل المعرفي بين الأجيال.
- الاكتفاء بالانبهار والدهشة أو التماهي في الآخر، أو الاكتفاء بدور المستهلك والمستورد دون اندماج في توظيف العقل العربي في ساحات الابتكار والإبداع.

(١)

نحو تأصيل مبدئي لمفهوم المشترك الثقافي والإنساني

لم يعد الوقت ولا المرحلة تسمح باجترار مفردات الصراع الحضاري التي ثبت فيها التجاوز للحقائق، ولا حتى مفردات الحوار باعبتارها النموذج الأفضل للتثاقف ولقاء الأفكار، وتجانس المواقف؛ ذلك أن البحث في دائرة المشترك الإنساني قد تبدو أكثر فائدة من قبيل التأصيل لكل ما هو إنساني جامع بين البشر بعيداً عن التقسيمات المصطنعة بين الأجناس، وأهل الأديان، وعبر الزمان والمكان.

يبدو المنطلق الأساسي في المشترك مسجلا في النص القرآني الكريم في قوله تعالي: ﴿ **يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثي، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا** ﴾ صدق الله العظيم، حيث إن التلاقي في الأصل واحد ووارد في وحدة الخلق، ثم جاءت التعددية مدخلا ضامنا للعودة إلى المشترك في باب التعارف، وتوظيف لام التعليل (لتعارفوا).

ويمتد المنطلق عبر جوامع الكلم في جمل موجزة حدث بها الرسول ﷺ الناس جميعا في حجة الوداع حين خاطبهم قائلا:

أيها الناس إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم، وآدم من تراب، ليس لعربي فضل على أعجمي إلا بالتقوي ، أكرمكم عند الله أتقاكم.

فهي إذن وحدة المعبود الخالق، ثم وحدة الأصل والنشأة، ثم وحدة المصير والمطاف وبينهما رحلة التعددية المنتهية إلى منطق (الكل في واحد).

ولنسمح لأنفسنا - مؤقتا- أن نستعير من توفيق الحكيم شعاره في «عودة الروح» التي طبقها على المصري القديم والمعاصر من حيث البحث عن الرمز والمعبود للالتفاف حوله تحت هذا الوازع النفسي، حتى وجدنا الظاهرة تمتد إلى الإنسان باعتباره إنسانا، له فكره وملكاته وقدراته وإبداعه، وله أيضا تفرُّده وتميزه ومواهبه التي يكمل بها عطاء الآخر، فهذه

التكاملية تظل شاخصة في منطق الأشياء منذ نبه أفلاطون إلى روح الوطن وجسده بين الفلاسفة وأصحاب الحرف اليدوية، وهي ذات التكاملية التى تحكي فصولا من قصة الإنسان عبر صراعه مع الكون والطبيعة، وحتى مع نفسه ومع أخيه الإنسان، لينتهي بإرادته- أو حتى بدونها- إلى صناعة هذا التكامل، أو الخضوع لذلك المشترك بمساحاته بكل روافده الحضارية والثقافية والدينية، مع تواصل خبرات الشعوب، وتبادل القيم والمنافع، وتبادل صيغ الدفع والوعي الإنساني بكل ما يتطلبه من نبذ الخلاف، والاندفاع إلى منطق التلاقي والتقارب.

من هنا تتحول فرضية المشترك الثقافي إلى واقع وتجربة، يجب التوجُّه إليها والآخذبها من قبيل الدرس الموضوعي القراءة المنهجية، والتوصيف الصحيح للحقائق، بعيداً عن الانحياز لفكرة مسبقة، أو الانقياد خلف منطق التعصب، والعنصرية لمن يرون في أنفسهم نمطاً وبقية البشر من نمط آخر.

لعل البحث في هذا السياق يأتي مدعوماً من طبيعة الفكر الديني ذاته عبر منطلقاته الكبرى الأصلية من وحدة المصدر، وتوحيد الإله الواحد الأحد في كل الديانات السماوية إلا ما ورد من باب التجاوز أو الافتراءات، وهذه لها شأن آخر، وسياق مختلف على غرار ماورد في المذاهب - وليس الأديان - من باب الثنوية، أو الشرك في الألوهية المطلقة، تلك التى انتهت إليها الفطرة السليمة للبشر في عبادة الخالق وليس المخلوق الذي لا طاعة له في معصية الخالق الأعظم جل شأنه.

في عباءة الإسلام دعوة صريحة إلى وجوب الإيمان بكل الرسل والرسالات «لانفرِّق بين أحد من رسله» وهو استكمال الإيمان بالله وكتبه ورسالاته؛ الأمر الذي يجعل الإسلام بابا واسعا لطرح قضية المشترك الثقافي في دعوته للإصلاح والأخوة والمساواة، والتكافل والتكامل، والشوري..... الخ.

وفي عباءة الثقافة الإسلامية كان هذا المشترك الذي اندمج فيه العربي

مع أخيه الخوزي مع البخاري مع الخوارزمي مع الجرجاني دون تفرقة، ولا اعتراف بحدود الإقليم والمكان، ولا حد النشأة والميلاد، فكانت الثقافة هي البوتقة الجامعة بين العرب وكبار مثقفي الأمم المشاركة في بنية منظومة حضارتهم على غرار ابن سينا والرازي والإدريسي وابن الهيثم وابن النفيس وابن حيان وابن رشد والكندي والفارابي وابن خلدون وحازم القرطاجني وغيرهم من أساطين الفكر الكبار الذين صنعوا المشترك إنتاجاً وإبداعاً، ثم قاموا على بنشره وتوزيعه تأثُّرا وتأثيرا في ظل منظومة حركة الترجمة، وتدوين علوم الأوائل، وقد تجاورا في دار الحكمة منذ أنشأها الرشيد، ونماها من بعده المأمون فالتقي العربي والهندي والفارسي واليوناني والسرياني في سياق المشترك الإنساني في أدق صوره.

إذا كان المشترك يمثل المسعي الحقيقي لتبادل الوعي الإنساني وتجارب الشعوب والأمم فهو المنطلق الذي دفع عالماً مثل الجاحظ -مثلا- إلي البحث في درجة التميُّز بالفصاحة لدى العرب، والسياسة لدي الفرس، والحكمة لدى الهنود، فكان لقاؤهم مدخلا إلى صناعة التواصل وتكامل الخبرات في سياق المشترك العقلي والوجداني قبل أى تصور آخر للتصادم أو الصراع، أو محاولات القهر والظلم والاستبداد، فالأصل في الأشياء هو ذلك الواقع الإنساني الذي لا يعرف ضفافاً الضفاف إلا من خلال تلك الشراكة الفاعلة بين قدرات البشر، وما يصدر عنهم من فكر وعلم وثقافة وإبداع، وحتى الحلم المستقبلي يدخل في هذه الدائرة الواسعة وعمق وذلك السياق الإنساني، فهل أن لنا أن ندرسه بوعي، وأن نمتلك من الآليات والجهد ما يقدم فيه الجديد المتناغم مع متطلبي الفترة وإيقاع المرحلة!.

(٢)

في سياق ثقافتنا العربية الإسلامية

ليس من المبالغة أن نزعم أن الثقافة الإسلامية قد نهضت على أساس الحوار بدليل المطلوب الجدلي المشروط بالحسنى، والدعوة بالحكمة، واحترام الآخر على مختلف انتماءاته العنصرية، وعقائده بدليل ما درجت عليه من انفتاح ذهني عبر حركة الترجمة من العربية وإليها دون تحفظ أو تعقيد، فكانت كل لغات المرحلة داخلة في عباءة العربية، نقلاً منها أو إليها دون جمود أو انغلاق، بقدر ما كانت سبيلاً من سبل المشاركة والإضافة والابتكار؛ وهذا هو المحك في أصول التثاقف والتلاقي بين الثقافات، وهو نفسه الفاصل الحقيقي بين ثقافة حية وغيرها ميتة.

من حقنا أن نفترض ـ على سبيل الجدل ـ ماذا لو كانت ثقافتنا تصادمية أو انطلقت من الصراع مع بقية الثقافات، كما اتهمها أدعياء التنظير الثقافي؟

لو حدث هذا لأغلقت أبوابها على أبنائها، فلم تعرف الدخيل والمعرب، ولما أخذت وأعطت في كل فروع العلم والمعرفة التي تجاوزت منطوق التخصص إلى إطار الموسوعية الفضفاضة، كما تجاوزت إيثار لغة بعينها إلى كل لغات المرحلة بين وسيطة مثل السريانية، وبين لغات أصلية لها أرصدتها التي تضرب في العمق الثقافي على طريقة اليونانية والهندية والفارسية.

لو حدث هذا ـ جدلاً ـ لما استمرت تلك الثقافة على مدار حقب التاريخ تنشر علومها بالعربية، وتشيع مصطلحات علمائها وأفكارهم عبر جامعات أوربا في عصور الظلام، حيث بدت قادرة على العطاء بلا حدود أو حواجز؛ قدرتها على الأخذ والتبادل دون تعصب أو تشنج تحت أي من الظروف؛ الأمر الذي بدت تجلياته أكثر ظهورًا من خلال أمرَيْن:

ترجمة كتاب الشعر، وكتاب الخطابة لأرسطو بقدر ما أتيح للعرب من

آليات ومفاهيم اصطلاحية في مستوى الترجمة بما يتسق وأنماط الإبداع لدى شعرائهم التي اختلفت في طبيعتها النوعية عن مواد الإبداع في الشعر المسرحي اليوناني.

والثاني في ذلك الاندفاع إلى المشاركة في صناعة المنتج الثقافي، دون نظر في طبيعة المَوْلد بقدر التحول إلى طبيعة النشأة والتكوين، حتى ذابت الحدود الفاصلة بين الأجناس والأديان تحت مظلة القبول والتسامح في الفكر الإسلامي، فكانت إسهامات الرازي والبخاري والجرجاني وغيرهم من أبناء وسط آسيا موازية لإبداعات لشعراء العربية الأقحاح، وكان قبول ثقافتنا لجهود المسلمين دون امتهان لعالم، أو تحقير لمنتج ثقافي تحت أي من مقومات الاضطهاد أو العنصرية، أو التفرقة، أو الاستعلاء.

من هنا يأتي البحث في مستقبل الحوار بين الحضارة الإسلامية وغيرها من الحضارات، باعتبارها مؤسِّسة لهذا الاتجاه، امتلكت مفاتيحه، و تمكنت من أدواته، وتستطيع أن تصنع منه نسيجًا متجددًا يتسق مع إيقاع المرحلة، ويصدر عنها من جانب، ويستطيع التواصل والاستمرار وتجديد ذاته مستقبلاً من جانب آخر.

تبدأ آليات المنتج الثقافي في الظهور من خلال عدة اعتبارات أساسية :

١- إعادة قراءة واقع مجتمعاتنا الإسلامية بشفافية واقعية، بعيدًا عن الانزعاج أو المبالغة، وبعيدًا أيضًا عن المغالاة والمغالطة، ودخولاً هادئًا إلى دائرة الحيدة والموضوعية، بما يستدعى وجوب تصحيح صورة المسلمين - وليس الإسلام - لدى الآخر، مع رفض اعتداءات الآخر على حقوق الإنسان تحت زعم نشر الحرية، أو فرض رياح التغيير بالقوة، أو تحويلها إلى عواصف عاتية تستهدف اقتلاع الجذور، أو المساس بالأصول، أو تهميش القوميات، أو التلاعب بالمقدرات والكيانات، أو الاستخفاف بالثوابت والمقدسات .. وهنا يجب احترام وحدة النوع والتعددية في آن واحد؛ انطلاقًا من دعم مفهوم «المشترك الإنساني» وتقدير عطاءاته

الحقيقية في التاريخ البشري، وانتهاء إلى قبول التعددية التي تنم عن وعي وفهم وقبول لكل ما ينتجه الآخر من باب التبادل النفعي من ناحية، والتلاقي الإنساني المطلق من ناحية أخرى.

٢- التفكير العلمي الجاد في ثنائية التقدم والتخلف، وفي توزيع الأمر جغرافيًا بين الشمال والجنوب، وزمنيًا بين الواقع وتوقعات المستقبل، الأمر الذي يتطلب توظيف الجهود في اتجاه واحد لا بديل له طبقًا لمعيارية محورية تنطلق من ثلاث منطلقات :

- إعادة قراءة الماضي، لا من منظور التباهي والتفاخر، ولا من بواعث الاستعلاء أو الركون إليه، بل من منطلق بناء جسور الثقة بالذات والأدوات والقدرات، واتخاذه - أي الماضي - متكأ للحضور القومي إيمانًا بالتواصل والاستمرارية، والتحول من ثقافة القول إلى ثقافة الفعل والإنجاز، ومن ثقافة التذكُّر إلى ثقافة الإفادة والاعتبار بالدرس الواعي والمفصل في بناء رؤى المستقبل.
- المقاومة الهادئة والمتأنية لحالة التردِّي التي تعانيها الأمة، مع الاعتراف بطبيعة كَبْوَتها الطارئة، باعتبارها مرحلة عارضة وجملة اعتراضية لا تقف حائلاً دون حركة الاندفاع إلى الأمام، ولا تدعوها للتراجع أو الانكسار، لاسيما إذا قيست أزمة الفترة بكثير من الأزمات التي شهدتها الأمة وقاومتها، وانتصرت خلالها على كل خصومها، من لدن الثورات التدميرية في حقب التاريخ من الزنج والقرامطة، إلى تدفُّق جحافل التتار، إلى تدفُّع موجات الصليبيين، إلى الاستعمار الأوربي الشرس في القرنين التاسع عشر وأوائل العشرين، إلى حركات التحرر الوطني والقومي التي أعادت للثقافة العربية هيبتها وصلابتها وقوتها دون انقطاع أو تراجع أمام كل محاولات التغريب في الأرض العربية.
- وضع الشروط والمعايير العلمية المحايدة في قراءة الموروث، لا من قبيل

السيطرة أو الهيمنة أو حتى الاستكانة أمام مشاهد الماضي عطاءاته، بل من قبيل صناعة الحوار معه، والجدل من خلاله، والإضافة إليه، والمناقشة حوله، والاستفسار عن أسراره ومكوناته، قصدًا ـ بذلك ـ إلى إحيائه من منظور عصري متجدد يقربه إلى النشء، ويؤسس لمفاهيمه دون اغتراب أو عزلة؛ الأمر الذي يتطلب جهودًا قومية متكاتفة تنهض على أساس من المرونة في مواجهة تحديات العصر، وتتجاوز مسألة الانشطار الفكري بين منطق المعاصرة والإحياء، فكلاهما ينتهي إلى هدف واحد، منطلقُه الإيمان بحرية الفكر الذي تقبل تعرُّب الشعوب والأمم، ودخولها عن رضا وقناعة في عباءة الثقافة الإسلامية بكل ما ارتدته من أثواب الرحابة والعمق والاتساع والمرونة.

٣- الاهتداء بحقبة السلف الصالح في سياق التأليف والإبداع في كل العلوم الدينية واللغوية والأدبية والتاريخية والإنسانية، إلى جانب ما أحرزته في العلوم الطبيعية والتجريبية، وما يلفها جميعًا من ذلك التداخل الرائع بين قضايا العلم والإيمان، دون اعتبار الدين حجر عثرة في سبيل التقدم، والاندفاع تجاه الأفضل؛ خاصة إذا تطلب هذا الدين إعمال العقل من خلال التفكُّر والتدبر في أسرار الكون، والاندفاع إلى احترام السمو الأخلاقي والوجداني البشري تحت مظلة حقوق الإنسان في الحياة والحرية والمساواة والإخاء، وهي أيضًا حريته في اختيار العقيدة، وإقامة العبادات والشعائر في حرية تامة، دون خوف أو قهر أو استعباد.

٤- تحديد مفهوم الإصلاح وبواعثه وآلياته في مساق إحياء علوم الدين والدنيا، دون انحياز أو تعصُّب، فمن حق كل شعب وكل أمة أن تأخذ بما تراه صالحًا لبناء أجيالها، ورسم سياسة حياتها واقعًا ومستقبلاً في ظل شراكة حضارية واقعية وواعية صنعها الفكر الإسلامي وأصَّل لها في اعترافه بالآخر، واحترام الحدود الفاصلة بين البشر حسب مبلغهم من

العلم والتقوى، وهو ما انتهي إلى احترام المشترك الإصلاحي في تاريخ الأمم، والإفادة من تجارب الآخر مكانًا وزمانًا؛ فمن حيث المكان يمكن الإفادة من تجارب الأمم الناهضة من قصة كفاح اليابان أو الصين وغيرهما، ومن حيث الزمان يمكننا الإفادة من ثراء التجارب التاريخية التي صمدت فيها أمة الثقافة وثقافة الأمة، فلم تتحول يومًا إلى ثقافة تاريخية ولا رموز غامضة ولا طلاسم مستغلقة بقدر ما ضمنته من المرونة والتجديد في كل تيارات الفكر ومناحيه، وعلى رأسه كان تجديد الفكر الديني، وتجديد الخطاب الإنساني بما يتسق وإيقاع حركة التاريخ مع توالي الحقب، وتلاحق الأحداث، وتراكم المعارف، وتوالي التحولات الإنسانية.

٥- عدم التنازل أو التوقف عند حد القول في برامج الإصلاح، مع محاولة تجاوز الجدل حولها باعتبارها ضرورة مرحلية، تستوجب الأخذ بالأسباب، وتتجاوز حد الانشغال بالتفاصيل إلى قراءة أسس التفاعل مع دراسة تداعياته عبر مشروعات التحديث والتغريب، والهوية الحضارية والثقافية، وتجاوز إرباك المصطلح وضبابية الرؤية إلى بناء مواجهة صدمة الحداثة بقوة وجسارة دون خوف على الهوية القومية أو الدينية أو الشخصية إذا أخذنا بمبدأ الحصانة والقدرة على المواجهة، أو استطعنا تحويل الحداثة لخدمة التراث وحمايته دون تعميق هوة الخلاف بين المنطوق الحداثي والتراثي في صورة طرفَيْ خصومة، إذ الصحيح في الخروج من أزمة الازدواجية صناعة المصالحة الثقافية بين القديم والعصري بتحديث الموروث مقابل تأصيل المستحدث، وهذا يكفي لصناعة مستقبل أكثر وضوحًا.

٦- الشجاعة في مواجهة الذات قراءةً ونقدًا وتحليلاً، وإعادة النظر في صياغة مشروع الخطاب العربي العصري بكل أبعاده : التربوية والأخلاقية والشبابية والإعلامية والتثقيفية والدينية، مع ضمان الحد

الأمثل من التواصل المعرفي والتجانس الفكري، والتلاقي الثقافي بين الأجيال، وهو ما لا يتأكد إلا من خلال تعزيز صيغ الحوار، وتعظيم دورها في قراءة التراث من داخله وخارجه - على السواء - عبر مناهجنا والإفادة من مناهج الآخر، في سياق النسبي وتجاوز المطلق، مع احترام الثوابت في سياق المتغير، وتجاوز التخوُّف من القفزة المعرفية والطفرة الثقافية التي قد تمثل ثورة أو مدخلاً جادًا إلى الاندماج في منظومة التحديث والتطوير الكبرى التي تعتبر سمة من قسمات المرحلة ومتطلباتها، وليست من قبيل الترف و الوجاهة.

٧- الأخذ بمنطق التحليل المنهجي، وتجاهل عشوائية الفكر، أو الاندفاع الجاد من خلال إرادة التغيير في ظل ممارسات إنسانية واعية، تحترم منظومة القيم، وتتحول إلى ثقافة جماهيرية ومجتمعية أكثر منها ثقافة نخبوية أو سلطوية، لعلها تحقق طموحات المستقبل، وتبني مرتكزاته الأساسية في ظل خطوط التنمية وتحقيق العدالة، واستكمال التحرر الوطني والقومي في الانفلات من الهيمنة والتبعية، وتنمية قضية التجديد الحضاري، دون استشعار الدونية أو مركب النقص لمجرد التخلف - مؤقتًا - عن مواكبة أحدث تيارات العصر المتسارعة، ولا ننسى حاجتنا الماسة - هنا - إلى الانخراط الفعلي في منظومة التحديث أخذًا بآلياته، وفهمًا لتوجهاته وأبعاده انشغالاً بالانخراط في قاطرة التنمية البشرية، ودعمًا لاحترام الثوابت والأصول واحترامًا للخصوصية الثقافية لكل أمة أيًا كانت طبيعة ثقافتها التي تظل جزءًا لا يتجزأ من شخصيتها.

٨- تحديد موقف ثقافتنا من شروط التغيير، بدءًا من إمكانية تفعيله، وتحويله إلى مشروع حقيقي، وإنجاز فعلي على أرض الواقع، نمتلك آلياته ومداخله ليقود إلى مستقبل أفضل، شريطة أن ينطلق من الداخل مستهدفًا - أساسًا - تعميق فكرنا العربي، مع احترام الوعي الجمعي،

وتجاوز منطق التشرذم والانقسام والتناقض والمزايدة، إلى محاولة تشخيص الحالة العربية الإسلامية لا من قبيل التباكي أو الاكتفاء بالرصد والعرض، بل الانطلاق إلى طرح خطط زمنية للإصلاح الحقيقي، وصياغة التحولات والبرامج الجادة في ظل احترام المرجعية، وصحة الرهان على إنجاح الهاجس القومي، وإعادة النظر في ترتيبات البنية الثقافية، وتعزيز فعاليات ثقافة المعرفة والانتماء والتطوع، مع ثقافة المنهج والحوار وتجديد عطاء العقل العربي، مع تكامل المرحلة والتكامل المؤسسي في رسم خطط المستقبل من خلال رؤى وأفكار ومناهج متجانسة.

٩- الشجاعة في مواجهة الاتهام والافتراءات الباطلة، ومنها ـ مثلاً ـ ما أُلصق بالإسلام من صور الإرهاب أو التخلف، وهو ما ليس منه بالفعل ـ بل هو منها براء ـ إذا أخذنا بموقعنا كأمة قادرة على البقاء، لأنها لم تخرج من دائرة التاريخ، ولن تخرج منه تحت أي من الضغوط، بقدر ما تخضع لقوانينه التي تستطيع التعامل معهابمرونة واقتدار، إذا أجادت إعادة اكتشاف مناهج التغيير وحدوده ومتطلباته، والعودة إلى قراءة الذات، وتكريم الإنجاز الإنساني، وإدانة ثقافة التخويف والترويع والإرهاب التي ينتهجها الآخر بلا مبررات إلا مجرد استعراض القوة، أو محاولة وتغيير موازين الحق والباطل، أو نشر ثقافة القتل والإبادة والإفساد والتخريب والتدمير دون حساب لتأطير محورَيْ الخير والشر إلا من قبيل الأهواء والأمزجة، والاندفاعات الحادة إلى الغزو الثقافي الهادف ـ أحيانًا ـ إلى إسقاط ثقافتنا من الحسبان، أو فرض نموذج مختلف أو برنامج قهري أو ما يشبه ذلك من إيهامنا بما ليس فينا من تعصُّب أو تخلُّف؛ الأمر الذي يتطلب ـ بدوره ـ وتأمل المقاصد العليا من وجوب العودة إلى كلمة سواء لإعادة جسور التلاقي التي أسَّس لها الإسلام منذ حوَّل العرب من قبائل إلى أمة تمتلك المفاتيح الحاكمة للإصلاح، وصحة التوجيه دون

تناقضات بين ما هو وطني وقومي وإنساني وإسلامي إذا تجاوزنا النعرة القُطْرية التي شكلتها الهيمنة الاستعمارية تمهيدًا لاحتلال الأرض والفكر تحت دعوى الحرية الزائفة،أو التجمُّل المفتعل أمام المستضعفين والأقوياء بنشر الديمقراطية في مجتمع كان يعرف جيدًا مقومات النهضة وصناعتها عبر منطلقاتها الجمعية والعلمية معرفته بمفاتيح المستقبل ومواجهة التحديات، والمشاركة في التنافسية، وإدراك الطبيعة النوعية للحدود الفاصلة بين الحرية والفوضى، بين الحوار والصراع، بين الوحدة والتعددية، خروجًا من ذلك التيه العميق برؤية وموقف وخطة عمل تعزز دور الأديان، دون مسخ للحقائق، أو تشويه للثوابت، أو التشويش حول الحقائق، بقدر

ما هو مطلوب من تعظيم ثقافة الإنتاج، وعمق المنهج وتحديد المصطلح والمفاهيم بعيدًا عن الانحياز أو التزييف، واحترامًا لضوابط العقل الصحيح الذي يعيد إلى الأمور ما قد يبدو معوجًا منها في اتجاه مضاد.

١٠- الاحتكام إلى التاريخ والواقع، لا باعتبار التاريخ ماضيًا مقطوعًا؛ بل باعتباره مدخلاً وجسرًا يتواصل مع الواقع، وبالتالي فهو بوابة المستقبل بما تفتحه من متطلب الثقة بعيدًا عن استمرار روح العداء والمؤامرة، أو تضخيم ساحة الخوف من خطط الآخر التي يمكن مواجهتها بحصانة الثقافة ومنعتها، إلى جانب تقويتها ـ توفيقًا لا تلفيقًا ـ دون تصادم أو عدوان أو انحسار في ظل نظرة أحادية تعجز ـ غالبًا ـ عن تحقيق التقدم.

(٣) في إطار العام والمطلق

تحتاج النظرة المستقبلية في حوار الثقافات إلى الدعوة المفتوحة أمام صيغ الفكر وصوره، إلى محاولة البحث عن القاعدة المشتركة على المستوى الإنساني، لاتخاذها مدخلاً لتخطِّي الخلافات والصراعات المزعومة ـ أو المصطنعة ـ لتحقيق أهداف وغايات مرسومة وموجَّهة؛ ذلك أن الصحيح في صياغة برامج المستقبل أن يبدأ من احترام موجب القيم الإنسانية التي بثَّها الإسلام ـ مثلاً ـ بين مشارق الأرض ومغاربها حتى صارت الغلبة لفكره عبر حركَتَي التعريب والتعرُّب، حين عزَّز قيم الإنسان الإيجابية، مع الإفادة من كل دروس التفاعل مع الآخر دون قهر له، ولا التماهي معه؛ بقدر ما هو ممكن من صناعة الجسر الثقافي الذي يسهم في تأكيد التثاقف والتواصل، ويؤكد وجود مساحة من تلاقي عقول الشرق والغرب بأمانة وموضوعية تضمن دعم وتأصيل قيم الحق والجمال، والخير والعدل والمساواة والتآخي بين كل ثقافات بني الإنسان.

تحتاج النظرة تجدُّد القراءة لأسس الحوار بين الشرق والغرب، وتقريب الفوارق بين الشمال والجنوب تحت مظلة دراسة المشترك حين يحترم الهوية، ويعظم منظومة القيم، ويضمن للثقافات الخاصة حقوقها في البقاء، مع احترام المشاركة في ملتقى الثقافات لوضع التصورات في أطرها الإنسانية العامة، وتحديد الآليات والبرامج التي لا ينفرد نمط بعينه بطرحها في غير شراكة الآخرين. وهنا يلزم التحلِّي بالموضوعية، وإعمال العقل المتفتح في استيعاب إنجازات الآخر، وتبادل المصالح معه، وحتى صناعة المصالحة من خلاله.

من الضروري في هذا المساق التنبه والنبيه إلى حقيقة الدور الريادي للمنطقة العربية في صناعة ذلك المشترك، بحكم طبيعة الموقع والتاريخ، وبحكم قدرتها على التحدَّث مع الغرب وإليه بلغة واضحة، مما يستوجب إعدادًا إعلامي عربيًا مشتركًا، وبمعنى أدق لعلنا نحتاج إلى صناعة المشترك العربي أساسًا كما كان حاله على مدار حقب التاريخ، مبنيًا على تقارب

الرؤى، وتجانس الأفكار من ناحية، وعلى أصول لغوية وعقلية ومصيرية من ناحية أخرى، حيث كانت كذلك الحضارة الإسلامية منذ فتحت نوافذها على العالم لتراه من رؤية كلية متجانسة من قبيل تحقيق التعارف بين الشعوب، فهي حضارة العلم وثقافة القراءة والتفكر والتدبر، وهي حضارة التلاقي والجدل بالحسنى، وهي ثقافة احترام الشعور الإنساني، لاسيما حين يحترم الدين الحنيف كل الكتب والرسالات السماوية جاعلاً منها شرطًا أساسيًا لاكتمال أركان الإيمان.

الاعتراف بأن من يثير قضية صراع الحضارات حاليًا هو صاحب منفعة في تلك الصيحة التي يروِّج لها المغرضون في الغرب، وهي تدفع دفعًا إلى صناعة المؤامرة، أو حتى محاولة تبرير روح التآمر وغرس الكراهية بين الشعوب؛ الأمر الذي يستوجب تجاهل مثل هذه الأصوات، والانصراف إلى الجادة، والتوسع في حيِّز العلاقات الإنسانية، والاتجاه شرقًا للتوسع في جسور الفكر والتوسع في تأصيل الدور الثقافي والعمق الحضاري من هذا المنظور الإنساني الذي يجمعه ضمير العالم وحوار الإنسان مع أخيه الإنسان.

لقد تعددت صيغ التلاقي عبر حضارات الشرق القديم وحوض المتوسط، وامتدت الصيغ إلى أفريقيا المسلمة، ومصر، والأندلس والصين، وكان في ساحات الاتساع ما قارب بين اليونان والشرق، ووحَّد بين أساطين الفرس والعرب، وتحققت ـ يومئذ ـ القيم المشتركة العليا بين الأجناس والأديان دون جناية على صور المخالفة؛ الأمر الذي يدعو إلى شجاعة المراجعة وجسارة القراءة المنطقية للتاريخ من هذا المنظور الإنساني المفتوح.

وانطلاقًا من احترام هذا الحق، وتعزيزًا لمنطق التعددية يظل واقع ثقافتنا الإسلامية داعيًا ـ بدوره ـ إلى شيئين :

أولهما : وجوب إقامة جسور تعاون مع الآخر، بشرط اعترافه بحقنا التاريخي في نشر الثقافة والفكر، ضمانًا للإنصاف وتفاديًا للظلم، أو التجني على موقع أمة من خريطة العالم.

الثاني: وجوب الاعتراف بالأثر الإسلامي الفعلي في صناعة المشترك وصياغته بشكل راقٍ بين شعوب الأرض، بدليل صناعة تلك الثقافة على أيدي غير العرب من حيث المولد، ولكنهم كانوا نشأً حضاريًا إسلاميًا يعكس الصورة الحضارية المشرقة لهذا الدين.

ثم يبقى من الضروري الاهتمام بمستقبل العالم الإسلامي الذي أصبح مطالبًا بتصحيح صورته لدى الغرب، ومن السهل أن يعيدها إلى إشراقة ماضيها في ظل كل دوائر ذلك المشترك القيمي والإنساني والديني والثقافي؛ مع ضرورة تغييب الخواطر البشعة حول الزعم بالخطر الإسلامي الذي يروج له بعض الإعلام الغربي على حساب تجاهل الحقائق المنوطة بتاريخ الأمة التي رسخت كل مفاهيم الخطاب الإنساني الفاعل مع الآخر، منذ خاطبت فيه العقل والوجدان وأكدت عمق النزعة الإنسانية التي جمعت بين كل الحضارات والديانات، وأظهرت من مساحات التسامح وصوره ما أسقط الحدود الفاصلة بين الجنسيات والمذاهب والمعتقدات.

(٤) الاتجاه نحو المستقبل ومستوى الرؤية

لعل الحوار المنهجي ينتهي بنا إلى الخلاص من تداخل دلالات المصطلح، ومحاولة الخروج من دائرة الفوضى، وخلط الأوراق بالوصول إلى طبيعة الحدود الفاصلة بين مفاهيم الصراع والتصادمية، وصيغ الحوار والبحث عن المناطق الآمنة في خريطة الفكر الإنساني.

ولعل الاندفاع المنهجي أيضًا نحو رؤية المستقبل يبدأ : من وضوح الرؤية، وتجدد قراءة ذلك المشترك الثقافي في بعده الإنساني الرفيع بين القبول، والتأثير والتأثر، وبين محاور الأخذ والعطاء، إلى احترام الانفتاح الذهني، والدعوة إلى إعمال العقل والفكر في صورة إنسانية رحبة؛ محورها الحيدة والموضوعية، وأساسها سلامة المنهج، وصحة النتائج، وعدم الافتئات على التاريخ أو تزييف حقائقه وتفسيراته.

مثل هذا الاندفاع يظل ضمانًا لصحة مسار الأمة من خلال قياداتها الفكرية الواعية، بعيدًا عن التخبط والعشوائية والارتجال، إذا أردنا أن نحقق ـ بالفعل ـ خطوة جادة نحو بناء مستقبل أفضل، وهو ما يمكن إيجازه في عدة مسائل ومقترحات منهجية منها :

- طرح صورة من المتوقع بناء على الشفافية في قراءة معطيات الواقع دون انحياز أو جور، وإعادة النظر في منظومة تاريخ الأمة، لا بوصفها مجرد ماضٍ نفتخر به، ولكن باعتبارها عاملاً مؤسسًا لإيجابيات الواقع وآليات المستقبل، وبناء الثقة بالذات، فالتواصل الزمني هنا يمثل جزءًا لا يكاد يتجزأ من التواصل الإنساني في كل صوره وأشكاله ومستوياته وأنماطه.
- موضوعية الرؤية في سياق صحة الحوار النقدي، بما يسمح بمحاسبة الذات ومراجعة النفس، دون جلد أو تقريع بما لا يضيف جديدًا سوى التراجع والتدهور، وزيادة مساحة الانكسار والانهزامية، ويجيب تعزيز الأمر بقبول التعدُّدية، وإفساح الصدر لمقولات الآخر قبولاً أو رفضًا

ومناقشة، والاتجاه نحو تعديل ما نستشعره من احتمال الخطأ أو وقوع التجاوز، أو عدم القبول بالشكل المناسب.

- الإصرار على رؤية المستقبل من منظور منهجي علمي عربي رحب، وإسلامي أكثر رحابة، نتجاوز فيه مراحل اليأس والقنوط التي قد تمليها مؤشرات الأحداث - أحيانًا - فالتاريخ ليس ملكًا لأحد، والأصول لا تذهب سُدًى إذا ما حدث التواصل والتلاقي بمنأى عن التباهي بالذات، أو التماهي في الآخر، ففي وسطية الفكر ما يضمن سلامته دون تطرُّف هنا أو هناك، وفي غيبة التطرف يظل كل شيء مفهومًا وواضحًا وقابلاً للنقاش والإضافة والابتكار، وفي غيبته - أيضًا - تبين الحقائق ويتكشف جوهر الأشياء.
- بناء مشروع عربي نهضوي؛ منطلقاته الكبرى هي مرتكزات الثقافة والأصول الثابتة دون تفريط أو تهاون في محاولة النيل من أي منها باعتبارها تراثًا إنسانيًا له أبعاده وآثاره ومقوماته وضوابطه، مع شمولية الرؤية في تحقيق التوحُّد الاقتصادي والتكامل المعرفي، وإتاحة الفرصة لأجيال المستقبل العربي في إعادة صياغة علاقات الواقع العربي العربي من خلال حرية الفكر من جانب، وتشجيع التميُّز والتفوق والابتكار من جانب ثانٍ، مع الأخذ بآليات المعرفة المعاصرة من جانب ثالث.
- ثقافة الاعتراف والصراحة في إدراك حجم التحديات المرحلية؛ مع تهويل شأنها، مع تحديد الآليات المطلوبة من خلال أبناء الأمة، دون فرض أو تبعية، وعندها يتم التلاقي والتكامل الحقيقي بين العربي والإسلامي، بما يمكن أن تنهض به المؤسسات المتعددة التي تتبنى قضايا الفكر ودراسة منهجياته، بعيدًا عن طبيعة التوجُّهات السياسية للحكام، وانحيازًا إلى تحقيق طموحات الشعوب وآمالها؛ الأمر الذي يبدو جليًا في إمكانية توظيف التكنولوجيا في خدمة الفكر الإسلامي؛ على غرار ما يقع من خدمة غيره، مع مراعاة سرعة التحرُّك في هذا الاتجاه، حتى لا يظل

المقترح حبيس الأدراج، أو تذهب نتائجه المتوقعة أدراج الرياح !!

- الاتجاه إلى بنية المشروعات المستقبلية التي تفي بتحقيق بعض طموحات أبناء الأمة ممن آن لهم المشاركة في بناء مجتمع المعرفة، وبداية الخروج من شرنقة الاستهلاك إلى دائرة المنتج الثقافي والمنتج العلمي، بما يسهل أمامهم مهمة اللحاق بركب التقدم، أو يختزل المسافة بين المتقدم والمتخلف، أو ينبئ بإمكانية البحث عن حلول فاعلة لمشكلات الجيل، بناء على تواصل الخبرات وتراكم التجارب الإنسانية التي ربما لا ندرك أبعاد دورها الحقيقي في نجاح المشروع بشكل جاد إلا من خلال الخطوات الجادة والممارسة الفعلية لأفضل ما هو متوقع منها.

(٥) تقويم ومكاشفة

والتقويم هنا ينقسم عبر مسافتين : إحداهما قراءة الواقع التي تكررت مرارًا عن قصد، وهذه عرضنا لكثير من ملامحها وقسماتها وتداعياتها. وترتهن المسافة الثانية بتحليل الإيجابيات المتوقعة من المشروع المستقبلي، والتي يمكن أن نحلل من بينها عدة نماذج نرصد منها على سبيل الذكر والتأكيد إلى حد التكرار أيضًا:

١- تعزيز دراسة المشترك الإنساني بإدخاله في دائرة الدرس والتحليل، واعتباره مدخلاً هادئًا إلى التصالح مع النفس ومع الآخر، وهو التصالح المطلوب بين أبناء الأمة تجاوزًا للفجوات الفكرية المصطنعة، أو الاتجاهات المتناحرة ضمانًا لصحة التوجُّه إلى طريق التنمية البشرية في صورتها الصحيحة البناءة حيث تحترم الفكر وحرية الإبداع احترامها لمنظومة القيم وصناعة جسور التواصل، ومقومات المد بين السابق واللاحق.

٢- تفعيل قنوات الفكر وضمان الرحابة الهادية إلى إمكانية الانفتاح على كل اجتهادات المفكر الإسلامي، في سياق مناهج التنوير والمعاصرة التي تستدعى الهدوء والرزانة والمراجعة مع تأمل الأشياء بعيدًا عن العصبية والتشنُّجات، وبعيدًا - أيضًا - عن عدم الوعي الكامل بطبيعة الطرق الملتوية بين شعاب ومنحنيات، مما قد يدعو إلى إيثار الغموض أو التوقف في مفترق الطرق، على نحو ما يراد بالأمة - أحيانًا - ككيان، أو بالثقافة كهوية، أو بالتاريخ كأصلٍ لها.

٣- تلافي صيغ الانقسام المجتمعي أو الانشطار الذاتي، والعودة إلى تأصيل منطوق رحابة الفكر المنهجي في قراءة المستقبل؛ والوعي المناسب بضرورة تسخير عصر المعلومات في خدمة الفكر الإسلامي المتهم دائمًا بلا مبرر، وآن له أن يحقق الرد الفعلي على كل الافتراءات.

٤- صناعة مشروع التحديث والإصلاح مًحليًا، لاسيما إذا امتلكنا إرادة التغيير الكافية لإنجازه، والآليات المناسبة للإقدام على مراحله الأولى؛ بدءًا من مواجهة صدمة الحداثة بتأصيل عطائها وتحديث موروثنا أمامها، إلى صناعة المزاوجة الهادئة بين ذلك الموروث والمستحدث، دون تراجع لأي منهما على حساب مسيرة نواميس الكون، أو اجتهادات الخلف استكمالاً لما صنعه السلف الصالح.

٥- تفعيل التكامل المؤسَّسي في صناعة قنوات المعرفة، وبداية إنتاج الثقافة، ومواجهة التحديات، وتقوية الجسر الثقافي مع الآخر، مع سرعة الاتجاه إلى ثقافة الفعل بجسارة وقوة، تتجاوز فيها حد التخوُّف من النتائج التي لا أحسبنا نتوقع أسوأ منها في ظل حالة التردي والضعف التي حلت بنا، مع تجاوز حالة الخنوع والإحباط، والانتصار على منظور الانهزامية والتخاذل، وتجاوز مرحلة افتقاد الثقة في الذات،أو في منطوق التاريخ.

أما السلبيات المتوقعة فلعلنا نرصد منها ما يستوجب التعرف عليه من باب التخوُّف أحيانًا، والتراجع أمام باب الإصلاح في معظم الأحوال، بدءًا في ذلك من احترام حقنا في الخوف على الهوية من أن تمس، ووجوب الحذر من اندفاعات رياح التغيير إلى حيث مقاصد التهميش أو المساس بالقوميات، أو الكيانات التاريخية.

من حقنا التعبير عن انزعاجنا المؤقت أمام المتغير، ولكن الإفاقة واجبة في سياق القدرة على الاستيعاب، وسرعة التحول من دور التلقي إلى دور المرسل، ومن دور المستهلك إلى المنتج دون تقاعس أو تواكل أو تخاذل أو انحسار.

ومن حقنا أن تهتز الرؤية ـ مؤقتًا ـ في شكل ضبابي أمام مرجعيات التغيير، على ألا يعقبها ما نخشاه من التراخي في الانطلاق إلى ثقافة الإنتاج، وتجاوز الخطابية والمزايدة وضجيج الحوار إلى حد الصراخ العويل، فالبديل أوفق وأولى في التحول إلى منظومة العمل والإنجاز قبل أي اعتبار آخر.

وعلينا ولنا - أخيرًا - ألا نتراجع عن مسئولية تحليل الخطاب المعاصر من خلال دراسات جديدة، تضمن توصيل رسالة فكرنا الحقيقي إلى الآخر، وإلى النشء ضمانًا للتواصل والتلاقي والاستمرارية بشفافية ووضوح وصحة المرجعية، بما يؤسس لرؤية جديدة على كل المستويات التربوية والفكرية والإنسانية.